المحاضرة رقم 03

القصة القصيرة الجزائرية أثناء ثورة التحرير

تستوقفنا نماذج قصصية من هذه المرحلة – مرحلة الثورة التحريرية – التي عبرت عن موقف يتماشى مع طبيعة الحدث الذي شغل الناس، وزرع فيهم الأمل في النهوض، ورد الظلم الفرنسي، وتحرير الأرض، وصيانة العرض.

1- نماذج قصصية:

أ- نفوس ثائرة لعبد الله ركيبي:

يجد (عبد الله ركيبي) نفسه أمام سلطة الاعتراف بقيمة هذه القصص من الناحية الواقعية، فلا يهمه مدى براعتها الفنية، ولا سمو مزاياها السردية، وإنما الشأن يكمن في انتمائها إلى الواقع بكل صدق، «والحقيقة التي أقررها هنا، هي أن هذه المجموعة قد يمكن للناقد أن يقول فيها ما يشاء، ولكنه لا يستطيع أن يقول فيها أنها غير واقعية، فهي من صميم الواقع..واقع شعب في حرب دخل السنة الثامنة في كفاحه من أجل الحرية والكرامة الإنسانية..» [1]

تبدأ هذه المجموعة القصصية بقصة (نوارة الصغيرة). وتحكي تفاصيل حياتية لأب (اسمه رابح شقور) لم يتجاوز العقد الخامس من عمره، لا يملك إلا بنتا صغيرة اسمها (نوارة)، وزوجة طيبة اسمها (ربيعة)، وبقرة مدرة للحليب سماها (أم الخير). وتموت الأم، وتبقى نوارة في حضن أبيها الذي لم يشأ الزواج من أخرى حتى لا يفسد حياة ابنته التي يحبها كثيرا. وفي ظل الفقر الشديد، والبؤس القاتل في كوخ من الديس لا يصد ثلج وبرد الشتاء. تكثر أحلامه في اكتساب قطعة أرض، وثورين للحرث. فحرام أن تبقى نوارة في هذا البؤس – كما يناجي نفسه. وكان إذا نام توسدت ذراعه. وفي غمرة إحدى الليالي جاء جنود فرنسا، وأخرجوه من بيته بالقوة والضرب والشتم. وابنته نائمة لم تستيقظ، واقتيد في السيارة إلى وجهة مجهولة. وفي الصباح استيقظت (نوارة) فلم تجد النار والحليب الذي اعتادته مع أبيها. وخرجت تصرخ وتبحث عن والدها في الثلوج. إلى أن سقطت مغمى عليها، ولمحها الشيخ الصحراوي جار أبيها، وأخذها بين يديه، وهو يردد في نفسه:« لقد ذهب أبوها. وربما لحقته هي الأخرى...ولكن لا بأس ففي الباقي الرجاء والأمل...» [2]. وتبدو النهاية مفتوحة، تضمر بعض التفاؤل، والتطلع إلى المستقبل.

وتأتي قصة (وجود ...ولكن) لتعبر عن حوار داخلي لبطل القصة. وهو إنسان ترك وطنه مكرها مقهورا فارا من ظلم فرنسا. فيتجول في شوارع المدينة الصاخبة بمحلاتها، وسلعها...ويستحوذ على كيانه حوار نفسي شديد الثقل والمرارة، ويحس من خلاله بالتفاهة واللاجدوى، والقلق الوجودي. ويبدأ هذا الحوار بجملة: ما قيمة الإنسان في هذه الحياة؟ ثم يكبر السؤال إلى أن يصل إلى أرض الميلاد والمنشأ (الجزائر). وفي حوار خارجي مع بعض زملائه حول مصير الجزائر، وهل ستستقل؟

[1]) عبد الله ركيبي : نفوس ثائرة. ص23- 24
[2]) عبد الله ركيبي: نفوس ثائرة. ص34.

ينقطع عنهم إلى عالمه النفسي، ويسترسل: «إنهم يذكرونني بوجودي الناقص، بإنسانيتي المقيدة، بحياتي المبتورة..بكياني الذي يحتاج إلى شيء آخر..شيء غير الحياة والحركة والتنفس..شيء يعطيني المعنى الحقيقي لوجودي، لذاتي كإنسان..إنني أحتاج إلى الحرية.» [1]. والنهاية تبقى أيضا مفتوحة.

وقصة (راعي الغنم) التي تسرد حياة شاب (اسمه عمار) يسكن قرية تسمى (تيفرسين)، ويرعى غنم أحد الأثرياء. تصطرع في نفسه أسئلة كثيرة على الرغم من سذاجته، وبساطة عيشه. فهو يقضي يومه في الأحراش قرب شويهاته، يستظل بظل الشجر معها حين تلفحه أشعة الشمس، ويشرب من المنابع... وكان كثير السؤال عن المجاهدين الذين يسمع عنهم ولم يرهم؛ وهو الذي يحلم بأن يتخلص من مهنته ويلتحق بهم. وفي يوم من الأيام مرت حوله فرقة جنود ليست على هيئة واحدة من حيث اللباس والسلاح. وسألوه عن اسمه، وعمله، وسكنه. وعن الطريق الذي يؤدي إلى وادي (بني فضالة). ثم هب نحوهم يسأل عن هويتهم. وعندما أخبروه بأنهم (المجاهدون) راح يقبلهم في فرحة هستيرية. ويترجاهم أن يأخذوه معهم. وقالوا له: بأن الثورة تقبل من يملك سلاحا أو يحصل على سلاح من جندي فرنسي. فتحسر، واهتم. ولكنهم طمأنوه بأنهم سيأخذونه معهم في الوقت المناسب. وتتحقق الأمنية: «إنه الآن بين إخوانه المجاهدين، يحلم أحلاما جديدة، ويفكر في غيره بعد أن كان يفكر في نفسه..لقد أصبح يعطف حتى على كل أولئك الذين كان يكرههم ويحتقرهم، لأنه لم يعرف سوى الحقد والكراهية في الماضي..أما الآن فقد عرف أشياء غير هذه، أشياء كانت لا تخطر على باله، ويسخر من حياته القديمة وهو يهتف: إنه العهد الجديد عهد النور...فلتبارك السماء هذا النور الجديد.» [2]

بالإضافة إلى قصة (في المغارة)، وقصة (قصة لم تتم)، وقصة (وجد نفسه)، وقصة (اختار الطريق)، وقصة (الإنسان والجبل)، وقصة (صرخة في الليل)، وقصة (الواد الكبير)، وقصة (إلى البئر). وهي قصص تحمل من خلال عناوينها بعدا دلاليا مرتبطا بالثورة. وما يلاحظ حول شخصيات، وأبطال هذه القصص هو الاستغراق في الحوار الداخلي، وطرح أسئلة وجودية، وذلك برغم بساطتها. وهي أسئلة تنبئ عن مدى الوعي، والتعلق بالثورة، ومحاولة تغير النمط الحياتي السائد في ظل احتلال يمارس كل أنواع البطش على الشعب. ويبدو المكان متحاورا مع طبيعة الفترة. إذا القرية، والكوخ، والمغارة، والواد، والجبل، والطريق. كلها علامات لغوية دالة على الانسجام بين الثورة، والفضاء الذي تتحرك فيه.

ب-دخان من قلبي للطاهر وطار:

يقول الطاهر وطار في مقدمة هذه المجموعة القصصية، وهو يعيد قراءتها بعد عشرين سنة من صدورها الأول: « ما علق في ذاكرتي، عن الطاهر وطار، ذلكم الزمن البعيد، لا يتعدي شبح البدوي الراعي المقحم في محارب مساجد قسنطينة ومساجد تونس، ليتلقى علوم اللغة والشريعة، تفاجئه الحياة بالمفهوم الواسع للحياة، في خضم ثورة التحرير الوطني.» [3]. وقد كتب هذه القصص حين كان في تونس. وموضوعها ليس كله ثوريا. وإنما هناك بعض القصص التي حاول فيها مساءلة أحاسيسه

[1]) المصدر نفسه. ص39- 40.
[2]) عبد الله ركيبي: المصدر السابق. ص52.
[3]) الطاهر وطار: دخان من قلبي.ط2. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1982. ص11.

الداخلية على ألسنة شخوصه الذين كانوا يعانون من أسئلة النفس، والوجود، والقيمة، والفعل...وسعى من خلال تلك الأحاسيس أن يرسم العلاقة بين الرجل والمرأة. ويقع في مرات عديدة في فخ الخيبة والفشل. ويدرك أن هذه العلاقة ليست سوية؛ لأنها مبنية على الخداع، والمواربة. وانعدام الثقة أحيانا. ويمكن أن يكون الرجل ضحية نزواته، أو عواطفه المزيفة، أو فراغه الرهيب. ولا تنتهي هذه العلاقات غير السوية بالزواج على الرغم من ضغط العادات والقيم الاجتماعية والدينية. وتبدو شخصية البطل – في معظم هذه القصص - مضطربة على المستوى النفسي، تتحاور مع المكان الذي في العادة يكون غرفة داخل شقة. يعيش الفراغ الروحي، ويحس باللاجدوى. وهذا ما عبرت عنه قصة (حبة اللوز)، وقصة (صحراء أبدا)، وقصة (زنوبة)، وقصة (دخان من قلبي) التي حاولت تحقيق الحب النقي الخالص الحالم لشخصية رسام بارع يتعلق بالأوهام كثيرا. ولكنه يؤمن بالواقع وأغلاله. وينتهي مصيره بالفشل أيضا. وقصة (القبعة الجليدية) التي تروي طموح وتألق فتاة للتخلص من سلطة الأم التي تحولت إلى قبعة مكلسة على الرأس تمارس سيطرتها القمعية بما تفرضه على ابنتها من الالتزام بقيم المجتمع، وعدم التفريط في الأخلاق والآداب العامة.. والحرية التي تنشدها هذه الفتاة، هي الخروج من البيت دون رقابة، والاختلاط بالشباب، ومحادثتهم دون حسيب أو رقيب، وتلك حرية – في زعم القصة – تنشدها كل فتاة شابة. من دون النظر إلى الأعراف والقيم المجتمعية. ويبدو المنحى التحرري في جملة على لسان الفتاة تشكل لازمة إيقاعية داخل البناء السردي لهذه القصة، وهي (إن كل واحد منا في حاجة إلى الآخر). وتبدو شخصية البطل من خلال هذه القصص، وقصة (ممر الأيام) شخصية ناقمة على الوضع الاجتماعي الذي تسيجه الأعراف. ويمكن أن نستشعر درجة المبالغة في حصر إشكال الوجود العربي عند الكاتب في طموح الشباب إلى إقامة علاقات الحب مع الفتيات، من دون تدخل من المجتمع على هؤلاء، وإذا لم يتحقق هذا الأمر يحدث الشعور بالخيبة، و فقدان الأمل، واللاتزان في الحياة. فالشاب (عبد الستار) في هذه القصة كان يحدث أقرانه بأن عمر الإنسان العربي ليس فيه شباب، وإنما فيه طفولة، وكهولة، وشيخوخة. وما إن وقعت عيناه على فتاة اسمها(وردة) مطلة من شرفة مقابلة لمسكنه حتى تغيرت حياته، وأصبح لها رسم، وإيقاع آخر:« – يا الله ! ما الذي يمنع الإنسان العربي، من ممارسة شبابه؟؟ الماء مبذول لشاربه، ونحن نحتضر ظمأ لماذا؟» [1]. وفي الأخير يحصل فراق بينه وبينها.

وهذه المجموعة القصصية كان صدورها الأول في بداية الستينيات (1961) في تونس. ولاقت صدى كبيرا. وبقيت على حالها حتى، أُعيد طبعها سنة (1982) في الجزائر.« وفي هذه المجموعة التي يقدمها لنا الشاب الطاهر وطار – وليست هي كل إنتاجه في هذا الباب – في هذه المجموعة نلمس محاولات موفقة للقصة الجزائرية وإن لم تكن كل قصص المجموعة من القصص الثوري بل فيها اللون النفساني والاجتماعي مما يمثل الخوالج والأحاسيس والقضايا التي تتماوج في ذهن هذا الشاب وتشغله.» [2]. ولكن قصة (نوة) مفعمة بالثورة من حيث البنية الحكائية. وتروي بين تفاصيلها بطولة شاب من القرية الجزائرية، يلتحق بصفوف المجاهدين، ويتحول إلى قائد مغوار، بعدما ترك أم ولديه

[1]) الطاهر وطار: دخان من قلبي. ص89.
[2]) الهادي العبيدي: مقدمة قصص: دخان من قلبي. ص17.

(نوة). والابنين (عمار وإبراهيم). وتُبنى القصة على حدث (الانتظار)، ويتعلق الأمر بعودة البطل التي تتحق في آخر القصة. وهذه الزوجة المحبة لزوجها، وولديها. تتميز بنفسية مستقرة، ومتفائلة، ومتثائبة، ظلت مخلصة له، متمنية عودته، خاصة عندما جاءتها رسالة من أحد المسبّلين؛ إذ طلب منها إحراق الورقة بعد قراءتها. والرسالة عبارة عن إخبار بعودة زوجها لملاقاة الأسرة:« احرقيها حالما تنتهين من قراءتها، حافظي على سريتها...» [1]. فراحت تتزين، وتهيئ نفسها وطفليها لاستقبال ضيف عزيز لم تكشف لهما عن اسمه، فتملكتهما حيرة وقلق. وذبح الديك ذو اللون الأحمر مثلما وصفه السرد الحكائي في مشهد طريف يكشف عن التشبع الثوري:« حتى إذا ما تقدم القائد رافعا رأسه إلى السماء مصعرا خده، يتيه عجباً، وتبعه الخوجة بخطوات حذرة، ونفس نافرة، لحقهما الشامبيط في حركته الخفيفة، والتفاتاته العديدة، قالت نوة:

– اغلقا الباب، واسرعا لإلقاء القبض على القايد.

كان القايد هو الديك الأحمر الكبير والخوجة هو الديك الأبيض الهزيل، أما الشامبيط فإنه الديك الأزرق الصغير.» [2]

وتتميز القصة بتشابك الأحداث، وتنوعها، وتداخلها فيما بينها. ولم يتحقق مبدأ وحدة الأثر. وإنما أدى ذلك التشابك إلى صنع حمولات دلالية متنوعة. تسهم كلها في صناعة التناغم بين الشخصيات، والأحداث، والصور، والموضوع الثوري، والنهاية التي يلتقي فيها الزوج بزوجته وابنه (عمار) في الجبل. مع فقدان الابن الثاني إبراهيم أثناء القصف الشديد على القرية. كما تتميز هذه القصة برؤية استشرافية، تتنبأ فيها بعض شخصياتها بالانتصار، وتحقيق الاستقلال؛ ويتجلى الأمر مع شخصية أحد المسبلين، عندما استسلم لمشهد النجوم في الليل:« عجيبة، نجمة كاملة تسقط لرجم شيطان لا نقدر حتى على رؤيته..ترى كم مضى على الروس بعد استقلالهم حتى يفكروا في بلوغ النجوم..؟ آه لو أبقى حيا بعد الاستقلال وأتزوج وأنجب ولدا، فأرسله إلى روسيا ليقرأ علم النجوم...» [3].

[1]) الطاهر وطار: دخان من قلبي. ص98.
[2]) المصدر نفسه. ص94.
[3]) المصدر نفسه. ص101.